فصل من رواية

سيناء بلا حدود

بقلم سميرة عزام

فاته (*) أن يستوضح سائق التاكسي حين وضعه في رأس الشارع قائلا له بأن السيارة لا يمكن ان تقف به لصق المصرف ، عن سبب وقوفها بعيدا هكذا ، اذ مد يده بالاجرة ، ثم أطبق الباب ، وحاول ان ينعطف يمينا باتجاه ساحة النجمة حيث تقوم تلك الساعة التي بدا له انها الشيء الوحيد الذي لم يتغير في المدينة وان عقاربها لم تكد تتحول ، فلعلها كانت ايضا في العاشرة والنصف حين مر بها لآخر مرة قبل عشر سنوات ليركب سيارة الشركة التي ستحمله الى المطار ، ولكنه بعد ان خطا بضع خطوات لاحظ ان الناس يمشون في شبه هرولة ، وان بعض الحوانيت اغلقت مصاريعها نصف اغلاقة ، وان انفار الشرطة تبدو متحفزة بشكل غير مألوف ، وان الناس قد رسموا وجوههم بطريقة تتراوح بين ان تكون قلقا او ضيقا او انفعالا .. واذ بلغ تقاطع الشارع فوجيء بأعداد من الشبان لعلهم ان يكونوا طلبة او اعضاء منظمات يمشون صفوفا غير منتظمة ويهتفون هتافات مترنحة متقطعة يعوزها التماسك لتعبر عن شيء ، ثم ينعطفون يمينا ايضا باتجاه الساعة حيث تتحشد الصفوف في كتلة تتسع وتتلاز وهي تتلقف مزيدا من هؤلاء الشبان والشابات انحدروا اليها من تشعبات شارع المعرض ، ومن الشارع الاخر الذي ينحدر نحو الساعة من طريق مبنى البريد . ثم يكبر الحشد ويكبر ، ويلوح مزيد من هذه الرايات التي تخفق بمختلف الاسماء والشعارات ، والتي اتسخت او كادت لكثرة ما رفعت في مناسبات ، وأخذت الاصوات المتفرقة الناشزة تجتمع وتعرض ، ثم تغدو صخابة هادرة وهي تردد نداءات موقعة صب فيها هؤلاء المتظاهرون كل انفعالاتهم التي ازدادت حرارة مع شمس بدأت تتسلق تلك الرقعة الظاهرة من السماء ، ومع حركات الايدي التي ترتفع وتهبط في ايقاع يساوق الهتاف « الجزائر عربية ، الجزائر عربية » .

وحين استدار وقد جبهته المظاهرة لم يجد لنفسه موطيء قدم فقد كان الهتّافه من ورائه ومن أمامه وعن جانبيه ، وكان فمه الفم الوحيد المطبق بينها ، وقد امتدت يده بحركة غريزية ليطمئن الى وجود المحفظة التي استقر فيها الشيك ، في حين ارتفعت يده الاخرى تدفع قطرات العرق عن جبهته الباردة اذ وجد نفسه محاصرا من كل الجهات بل ومدفوعا الى ان ينقل خطواته باتجاه الساعة ، وان يبدو واحدا من هؤلاء المتظاهرين دون أن يدرك مناسبة التظاهر تماما . وتتوقف المظاهرة فيما حول الساعة وتلتفت الرؤوس المحمرة الآذان في هدنة من الهتاف لتصغي الى واحد من المتظاهرين اعتلى درجات البرلمان وأخذ يصيح بكلام غطى عليه لهاث اللاهثين ودمدمات المتدافعين بالمناكب وصياح واحد من هنا او هناك « الجزائر عربية » « يسقط الاستعمار » « عربية عربية » وينتهي الخطيب ، او لا بد انه انتهى ، اذ ارتفع التصفيق وعاد زعماء الهتّافة يتقافزون فوق الاكتاف وعادت الكتلة المتلازة تتململ واللافتات تتحول الى وجهة جديدة ، وتتمدد المظاهرة وتتشعب في الشارعين الصغيرين اللذين يؤديان بها الى شارع رياض الصلح . ثم تلتقي تلك التفرعات في كتلة واحدة كبرى تمتد على عرض الشارع سورا من الاجساد المنفعلة اشتد بها الهيجان ، فعادت تصرخ وتقيم جدارا من الاصوات يعلو الرؤوس ويظل معلقا في الهواء لا يسقط الى الارض اذ لا فرجة بين الاجساد المتلاحمة .

وفجأة اصبح واحدا منهم ، شبك متظاهر ذراعه بذراعه ، ودفعه هؤلاء الذين كانوا خلفه ، وبدأت الصفوف تتعرج وتلتوي في شيء من التصعيد بدت معه مقدمة التظاهرة اكثر طولا واختالت شعاراتها فوق هامة اللافتات الاخرى في طريق لا يمكن لسائر ان يرقاه الا لاهثا ، فهو ممعن في تصعيده حتى يمر بالبوابة الجنوبية للسراي وقد ربض أمامها جنديان انتقلا بضع خطوات الى الداخل اذ مرت بهما التظاهرة .

وانتهى التصعيد لتستدير الطليعة يمينا ، ثم يسارا

(*) مشهد من الفصل الاول من رواية « سيناء بلا حدود » التي تصدر قريبا .

ونساء في شرف الدور
أبواق نحاس راكضة خلف الظلمات
أقدام طبول وحشيه : « تم .. تم .. تت .. تم »
« عاد الكلدان من المنفى »
ـ عادوا ؟!
ـ عادوا ؟!
الليل مزاريب تشقع
ريح وعيون تتطلع .
تتلفت بابل كالحبلى
« عاد الكلدان من المنفى » !!
الرمح .. السيف .. الترس .. عصا
باقات النار على الابراج

ونساء في شرف الدور .
. . . . . .
. . . . . .
ـ لا شيء .. أراجيف قيلت .
في المنفى مات الكلدان
نهشتهم ريح مجنونه
صرعتهم حمى ملعونه »

***

أقدام طبول وحشيه
ـ « ها .. ها .. عادوا »
تتلفت بابل كالحبلى

دمشق

فواز عيد

الى شارع كليمنصو ، واذ سمع اسم الشارع يتردد قدّر ان تكون سفاره فرنسه هي وجهة المتظاهرين ، وعادت التظاهره تستقيم ، وانسلكت في الشارع وتوهجت هتافاتها وانتصبت حاجزا معلقا في الهواء يتكسر عليه زعاق سيارات الشرطه من الجهة المقابله وتتعلق بأطرافه توعدات عنيفة او هدهدات لا تريد للعنف ان يحطم القمقم مرة واحده ... « لا ، لا تستفزوا الحكومة ..» وعجب لهذا نيف لم يفقد تمييزه رغم الصياح الذي جرح حنجرته ، والعرق الذي يسيل من جلده رأسه ثم ينسق له جداول صغيره ينسرب معها على الجبهة او امام الاذنين . وفجأة لم يعد قادرا على ان يحرك قدما . لقد كفت اللافتات والشعارات عن الترنح ، وهبط بعضها عن الاكتاف المرهقة لتستقر الخشبات على الارض ثم اعتلى واحد او اثنان اكتاف الرفاق ورددا عبارات مسجوعه تلقفها الباقون ببراعة واعادوها محتفظين بايقاعاتها وسجعها .

ثم رأى وجها انثويا يعلو الاكتاف ، وسمع صوتا رفيعا يحاول ان ينفذ الى الاسماع من بين الاصوات العريضة الجهمه . صوتا يقول اشياء يعرف جيدا ما يمكن ان تكون ، فقد كانت ظاهره يومية في حياه طفولته ، يوم كان طالبا يمضي الى المدرسة كل يوم بشوق متجدد لان تكون هناك دعوه الى مظاهرة او اضراب ، وغالبا ما كان اليوم المدرسي يتحول لان يكون واحدا من هذين الاثنين . كبار الطلبه امام البوابه وفي ايديهم عصي او ما يشبه العصي يدفعون بها عن المدرسة كل من جاءها على نيه الاضراب او التظاهر ، او على غير هذه النية . وكثيرا من كان الواحد منهم ينفرد بتقرير الامور اذا ما اشتم في الجو توترا في نوع خاص تظهر بوادره في مزيد من الوجوه الحمراء التي لا تكاد تبين تحت الخوذات الفولاذيه يكتسح الشوارع فيمضي الى المدرسة متخففا من ثقل الكتب والحقيبة ، وفي الساحة الكبيرة يتجمع الصبيان بملابسهم الخاكية ويختارون لهم زعيما للمظاهره يكون في الغالب واحدا لا يتغير ، ويأخذون سبيلهم في حواري المدينة القديمة الى حيث يتجمعون تحت ذلك السور العالي الذي يقوم حول مدرسة البنات ويقرعون بعصيهم البوابة الخشبيه المسمره ويستثيرون بهتافهم السجناء في السجن المركزي المقابل فيرتفع لغطهم مشجعين ويتكهرب الجو ، واخيرا تنفتح البوابة الخشبية عن حشد انثوي حمل هتافاته معه من الادراج الخشبية في الصفوف ، ويختلط الحشدان فاذا بها مظاهرة واحدة تعرف ان نهاية المطاف واحدة لا تتغير ، وقفة طويلة امام دائرة مساعد حاكم اللواء لا يرد عليها بغير احكام الابواب وتحصينها بمجموعة من الرؤوس الفولاذية ، واذ تتعب القبضات الصغيرة من التلويح تتجمع الاصوات المتنافرة ـ الاصوات الانثوية الثاقبة ، والاصوات التي تراوح ترقة او خشونة بمقدار المسافة بينها وبين سن البلوغ ، الاصوات المتهدجة المختنقة اللاهثة ، الاصوات المتوعدة المتهددة ، الاصوات العالية او الخفيفة ، الاصوات التي تنطق والتي لا صوت لها ، الاصوات السوقية التي تمرست بثقافة الازقة والاصوات التي لا تتحدث الا همسا ، هذه كلها تجتمع وتتراكم وتلتحم وتختلط فاذا بها هدير يغطي على صوت البحر الرابض غربي المدينة ، المتكسر على حفافي سورها العتيد ، الشاهد على ما كان وما سيكون ، « يا بريطانيا لا تغالي لا تقولي الفتح طاب » ...

سميرة عزام

مؤسسة المعارف
للطباعة والنشر
بيروت

تقدم أحدث أنتاجها الادبي والفكري

ق.ل		
٥٠٠	عالم حر جديد في اسيا وافريقيا والوطن العربي تأليف محمد جميل بيهم	
٣٥٠	مختارات سلامه موسى	سلامة موسى
٣٠٠	رأس المال (الجزء الثامن)	كارل ماركس
١٢٠٠	قصة الادب في الاندلس ١ ـ ٢ محمد عبد المنعم خفاجة	
٣٠٠	فن الحب والحياة	سلامه موسى
١٥٠	ماهي النهضة	سلامه موسى
٢٥٠	طه حسين والشيخان	محمد عمر توفيق
٢٥٠	العلماء السوفياتيون والتحليقات الكونية	

***

٢٥٠	شارع الضباب	حاتم خوري
٥٠٠	غرام في الجامعة	وفيق العلايلي
٢٥٠	الحب في التاريخ	سلامه موسى
٣٠٠	البحث عن اله مجهول	جون شتاينبك
٦٠٠	الام طبعة ثانية	مكسيم جوركي

تطلب هذه المنشورات من مكتبة المعارف في بيروت

ص. ب ١٧٦١ ـ هاتف : ٢٢٨٨٠١